إسهامات النواب صديق حسن خان في اللغة العربية وآدابها

محمد أحمد عبدالله*
ahmadjnu1@gmail.com

ملخص:

تنفس النواب صديق حسن خان القنوجي في وسط القرن الثاني عشر للهجرة الذي انطفأ فيه سراج المغول وأشرق فيه سراج الإنكليز بكل هيمنة وسيطرة فرّقت وحدة المسلمين وشتّتت ملّتهم وتركتهم في ظلمة وجهل وكفر وشرك وبدعة. وجعلتها تتخذ الطقوس والعادات غيرالإسلامية. وحثتها على الاعتناق بالعبودية والذل والمهانة. ونتيجة لذلك تعقدت مسائل الأمة وتحوّلت إلى أخرى فقهية خلافية. فشدّ صديق حسن خان مئزره لمقاومتها بواسطة تأليف الكتب وإنشاء المدارس والمكتبات والدعوة والإرشاد إلى الدين الحنيفي.

الكلمات المفتاحية:

القرآن والسنة والفقه والسيرة والأدب والسياسة والتاريخ والمخطوطة والمدارس والمكتبات والتوزيع والجوائز.

مقدمة:

تعلم النواب صديق حسن خان وتثقف وتفقه ونجح بغزارة علمه وسعة اطلاعه وذكاء فؤاده وسرعة قلمه في أن يخرج من الجهل والفقر والاستعمار فقد توجه نحو تصنيف وتأليف الكتب الإسلامية والعربية والأدبية والفنية الجليلة التي يبلغ عددها مائتين واثنين وعشرين كتابا تقريبا في لغات ثلاث؛في العربية ستة وخمسون كتابا تقريبابما فيها خمسة كتب ومخطوطتان تتعلق بالأدب العربي والبقية الباقية في الفارسية والأردوية.

ألّف في التفسير والحديث والفقه والأصول والتاريخ والسنة والعقائد ومقارنة الأديان والسيرة النبوية وأسماء الرجال وغيرها ما يحتل الصدارة مثل "أبجد العلوم" الذي يجمع العلوم والفنون القيمة والذخائر الفكرية الممتازة وأقوال العلماء والفضلاء القدامى الجدد المفيدة الممتعة المتنوعة بالتحليل والمناقشة.

كان النواب صديق حسن خان في أحسن الحال والرخاء مشتغلا بالعلم

* باحث في الدكتوراه، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو، نيو دلهي، الهند.

والمطالعة مكبا على التأليف والتصنيف جامعا بين الرياستين العلمية والعملية مولعا بالكتابة يكتب ثمان صفحات يوميا على الأقل حتى في زمان احتلاله منصب الحكومة وكان يقول:

"إنه يشعر بالمرض في يوم لايقوم فيه بالمطالعة أو بالتحرير"[1].

"وقد كانت أنامله تتحرك كأنها مشغولة بالكتابة عند ما اشتد به المرض وأعياه العلاج"[2].

بدأ النواب يؤلف الكتب منذ بداية تعليمه فقد حرّر بعض الكتب والحواشي بيده وترجم "ينتبهات" لابن حجر المكي و"حبل المتين" و"الأربعين في أصول الدين" للإمام الغزالي إلى الأردوية بيده وحرّر شرحا مختصرا لـ"مختصر الميزان" في اللغة العربية[3].

وحمل النواب صديق حسن خان على نفقاته مؤلفات عربية مهمة نادرة من أطراف بلاد الحجاز واليمن والبصرة وغيرها. وقصد الحج عام 1285هـ فنسخ واشترى عددا من الكتب في الفنون المختلفة. وكان يقضى معظم أوقاته في البحث عن كتب الحديث. ونتيجة لذلك أصبحت مكتبته غنية بالنوادر المتنوعة التي تتعلق بالقرآن والسنة والتاريخ والسير والأصول والفنون الأدبية والتصوف وغيرها قلما يتفق مثلها لأحد من العلماء[4]. وفرّغ النواب بعض العلماء ليدرّسوا ويؤلّفوا حتى خارج بهوبال ومنهم أبوالمكارم محمد علي المَوِّي ومحمد سعيد البنارسي ومحمد بن أحمد الطونكي.

قام صديق حسن خان بطباعة عدد كبير من الكتب التي ألفها هو والتي ألفها السلف أيضا من العرب كانوا أم من العجم. وأعطى مطابع الهند ومصر وبيروت أموالا طائلة لذلك. ومما قام بطباعتها "فتح الباري" لابن حجر في بولاق بمصر و"تفسير ابن كثير" مع كتابه "فتح البيان" وكلفه عشرين ألف روبية و"نيل الأوطار" للشوكاني أيضا بمصر وكلفه خمسة وعشرين ألف روبية.وكان يوزع هذه الكتب مجانا بين أهل العلم والمكتبات العامة وله وكلاء في الهند وفي خارجها بالحرمين وتركيا ومصر واليمن والمغرب العربيلأجل التوزيع فانتفع بها العلماء في العالم كله.

وقام النواب بإصلاح المقررات التعليمية في المدارس لكي تكون جامعة للروح الإسلامي والروح العصري. ولم يقتصر على فتح المدارس الشرعية بل فتح المدارس العصرية وأخرى صناعية وأوجب تدريس مادة الدين في كلها وجعل التعليم مجانا في كلها. والمدارس التي كانت يعتني بها هي:

1. مدرسه بلقيسيه 2. مدرسه سليمانيه 3. مدرسه جهانغيري 4. مدرسه صنعت وحرفت 5. مدرسه برنس آف ويلز 6. مدرسه صديقي

أسس النواب صديق حسن المدرسة الأخيرة التي سمّاها على اسمه "مدرسه صديقي". وكان هو نفسه يراقبها ويتحمل نفقاتها ويلقي دروسا فيها. وكان عدد الطلاب فيها مائتين تقريبا[5]. ولم يتخذ الدين وسيلة للمعاش قط[6]. وكيف؟ وقد رفض

قبول أية تركة من ميراث أبيه من النقود والعقارات على ضخامته زهدا وتورعا بعد أن تحول إلى مذهب أهل السنة7.

وأعلن النواب صديق حسن بعقد منافسات علمية منها حفظ الحديث. فكان من يحفظ صحيح البخاري يأخذ ألف روبية ومن يحفظ بلوغ المرام يأخذ مائة روبية إلا أنه توفي بعد الإعلان بخمسة عشر يوما8.

وبسبب ذلك رحل طلبة العلم من أنحاء الهند ومن خارجها إلى بهوبال التي ازدهرت وصارت كعبة للعلم آنذاك فاستفادوا حق الاستفادة ثم انتشروا ونشروا العلم والعمل بالسنة.

ولا شك في أن النواب صديق حسن كان من العلماء الأفاضل فقد درس اللغة العربية وآدابها وأتقنها وثرّاها بخدماته الجليلة اللغوية والأدبية بالتأليف والترجمة في اللغات العربية والفارسية والأردوية. وأسهم في كل باب من العلم والفن. وبرع وفاق معاصريه بكثرة مؤلفاته. وفي السطور التالية بعض ما ألفها في اللغة العربية أو عن اللغة العربية وآدابها:

أما ما ألف في اللغة العربية وآدابها فهي كما يلي:

- إنشاء عربي
- البلغة في أصول اللغة
- تكحيل العيون بتعاريف العلوم والفنون
- العلم الخفاق من علم الاشتقاق
- تذهيب شرح تهذيب
- ربيع الأدب
- السحاب المركوم في بيان أنواع العلوم والفنون
- غصن البان المورق بمحسنات البيان
- لف القماط على بعض ما استعمله العامة من المعرب والمولد والدخيل والأغلاط
- الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم المنشور منها والمنظوم
- تصريف الرياح ترجمة مراح الأرواح (في الصرف)
- صافيه شرح كافيه (في الصرف)
- المنهل العذب الصافي شرح منهج البيان الشافي
- نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان

وأما ما ألف في التاريخ والسير فهي كما يلي:

- أبجد العلوم أو دائرة المعارف الإسلامية (في ثلاث مجلدات)
- التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول
- رياض الجنة في تراجم أهل السنة
- الحطة في ذكر الصحاح الستة
- خبية الأكوان في افتراق الأمم على المذاهب والأديان

- رحلة الصديق إلى البيت العتيق
- مراتع الغزلان في تذكار أدباء الزمان

وأما ما ألف في علم التفسير والحديث فهي كما يلي:

- فتح البيان في مقاصد القرآن
- السراج الوهاج في شرح مختصر صحيح مسلم ابن الحجاج
- فتح العلام بشرح بلوغ المرام
- الروض البسام من ترجمة بلوغ المرام
- أربعون حديثا متواترة
- نزل الأبرار بالعلم المأثور من الأدعية والأذكار
- حضرات التجلي من نفحات التجلي والتخلي
- مثير ساكن الغرام إلى روضات دار السلام
- يقظة أولى الاعتبار فيما ورد من ذكر النار وأهل النار
- الدين الخالص (في مجلدين)
- الرحمة المهداة إلى من يريد زيادة العلم على أحاديث المشكاة
- الحرز المكنون من لفظ المعصوم المأمون

وأما ما ألف في فقه السنة فهي كما يلي:

- نيل الأماني بشرح مختصر الشوكاني
- ذخر المحتى من آداب المفتي
- ظفر اللاجي بما يجب في القضاء على القاضي

وأما ما ألف في العقائد فهي كما يلي:

- الانتقاد الرجيح في شرح الاعتقاد الصحيح
- قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر
- قصد السبيل إلى ذم الكلام والتأويل
- الجوائز والصلات من جميع الأسامي والصفات
- الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة
- حصول المأمول من علم الأصول
- ترجمة شرعة الإسلام
- بغية الرائد في شرح العقائد
- حجج الكرامة في آثار القيامة
- المقالة الفصيحة في الوصية والنصيحة

وأما ما ألف في التصوف والسلوك فبعضها كما يلي:

- قطع الأوصال ترجمة قصر الآمالي

وأما ما ألف في التقليد والاجتهاد فهي كما يلي:

- الاقليد لأدلة الاجتهاد والتقليد

- الطريق المثلى في الإرشاد إلى ترك التقليد واتباع ما هو الأولى
- الجنة في الأسوة الحسنة بالسنة

وأما ما ألف في المناقب فهي كما يلي:

- الكلمة العنبرية في مدح خير البرية
- الموعظة الحسنة بما يخطب في شهور السنة

وأما ما ألف في السياسة فهي كما يلي:

- إكليل الكرامة في تبيان مقاصد الإمامة
- العبرة بما جاء في الغزو والشهادة والهجرة

وأما ما ألف في الأخلاق فهي كما يلي:

- تخريج الوصايا من خبايا الزوايا
- حسن الأسوة مما ثبت من الله ورسوله في النسوة

هذا وقد أفرد العلامة بالكتابة عن اللغة العربية وآدابها فجاء بـ"البلغة في أصول اللغة". وهو من أهم الكتب في علم اللغة ومن أنفعها وأنفسها وأبدعها. فالمقدمة في وصف اللغة وتعريفها وبعض مبادئ هذا العلم. والباب الأول في علوم اللغة وما يتعلق بها وينحصر في خمسين مسألة. والباب الثاني في ذكر الكتب المؤلفة في علوم اللغة العربية والفارسية والتركية والهندية على ترتيب حروف المعجم من الألف إلى الباء. والخاتمة في بيان إعجاز القرآن والعلوم المستنبطة منه. وفي الأخير تقريظ الشيخ حسين بن محسن اليمني.

وجاء بكتاب "العلم الخفاق في علم الاشتقاق". وعرّف فيه الاشتقاق لغة واصطلاحا ثم قسّم علم الاشتقاق إلى أقسام مع الأمثلة. وذكر القضايا الأخرى المتعلقة بالاشتقاق. وجمع فيه ما أنتجته العقول البشرية وألحق ما بلغه عقله من خلال الدراسات الواسعة.

وجاء بكتاب "غصن البان المورق بمحسنات البيان". وتناول فيه موضوع البديع. وأبرز فيه بديع اللسان الهندي مع الإضافة إلى صوت الكوكلاء بكل تلخيص وإتقان وبأسلوب رشيق خال من السجع والترادف. وبيّن فيه فضائل اللغة العربية ومميزاتها على سائر اللغات مع الإشارة الخاصة إلى اللغة الفارسية والسنسكريتية. وذكر الكتب المختصة بعلم البديع أخيرا.

وجاء بكتاب "نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان". وعرّف فيه العشق في ضوء أقوال السلف. وذكر في فصل في أسباب العشق وعلاماته أشياء عديدة محببة منها علامات العاشقين والعاشقات. وذلك بأسلوب ممتع جدا يرغب في العثور عليها كل شاب وشابة. وذكر في الخاتمة أعضاء المعشوقة مقتبسا من كتاب "مرآة الجمال" للسيد غلام علي آزاد البلغرامي الذي وصف فيه كل عضو من أعضاء الحسناء وصنع مرآة ينطبع فيها بدن العذراء من الرأس إلى القدم وأبدع في تشبيهاتها واستعاراتها فإنه وصف الضفيرة والجبهة والحاجب والعين والهدب واللحظ والكحل والأنف والفم والشفة

والثغر والتبسم واللسان والحديث والرضاب والخد والعرق والخال والذقن والأذن والقرط والجيد والطوق والثدي والوشاح والقلب والساعد والسوار واليد والظفر والحناء والخصر والسرة وما تحت السرة والردف والساق والرجل والخلخال والقامة والميس وكذلك اللباس الأبيض والأحمر والأصفر والأسود والأخضر والأزرق واللباس المصندل[9].

وجاء بكتاب "لف القماط على تصحيح بعض ما استعملته العامة من العرب والدخيل والمولد والأغلاط". وهو موضوع قلما تناوله الكتاب الهنود. وقد قام صديق حسن بالفحص عن الكلمات والتعابير والأمثلة السائرة التي جرت على ألسنة العوام وانتشرت فيهم. ولايبادر إلى أذهان الناس حتى الخواص منهم أنها كلمات لا أصل لها بالعربية ولا صحة ولا أصل لها في القواميس ولا سند لها في اللغة والأدب إلا أنها أصبحت رائجة ونالت قبولا. ومن الغريب جدا أن المثقفين أيضا يتحدثون باللغة العامية إذا هم يتحدثون فيما بين العرب والبعض يفتخر بهذه اللهجات إلا أنهم إذا كتبوا أو ألقوا الخطب والدروس فلم يستخدموا العامية ولا الألفاظ النادرة الشاذة ولا الألفاظ الدخيلة والمولدة وإن الأمير صديق خان كأحد المحامين للغة الفصحى فقد قام بفرز ألفاظ وكلمات وبتحديد أخطاء وتقديم كلمات وتعبيرات صحيحة مقابل ذلك[10].

وجاء بـ"ربيع الأدب". وهي مخطوطة غير مطبوعة حتى الآن حسب علمي وموجودة في مكتبة العلامة شبلي النعماني بدارالعلوم التابعة لندوة العلماء بلكناؤ بالهند برقم 1442. وهي تتضمن آراء العلامة صديق حسن خان حول الأدب عامة والمراسلة وفن المكاتبة خاصة. والمقدمة في بيان التنميق والتسجيع في المراسلات. والفصول في بيان مبادئ الرسالة وذكر ما يجب على المرسل أن يلتزم به من حسن كتابة الرسالة وذكر نماذج من الرسائل أرسلت إليه أو إلى العلماء الأفاضل آنذاك[11].

وللعلامة مخطوطة أخرى موجودة في المكتبة العامة بدارالعلوم التابعة لندوة العلماء بلكناؤ برقم 1462. وهي في فن الأدب العربي. وهي تدل على أن النواب صديق حسن خان كان لايحب تزيين الكلام بكلمات مترادفة ومتجانسة لا محل لها ولاتنطوي على معان. وكان يهتم بالمعاني أكثر من التلاعب بالألفاظ والكلمات في المراسلات والكتابات الأخرى[12].

ويبدو من مطالعة مؤلفاته أن كلا منها جامع علميا وفنيا ومعرفيا فمثلا ألّف "فتح البيان في مقاصد القرآن" وأصبح ممن يعدّ تفسيره الآن من أجود التفاسير من حيث المادة والبيان والمعنى والفكر. وهو يغني عن جميع التفاسير ولاتغني جميعها عنه. فقد قال محمد منيرآغا:"هذا التفسيرخير من تفسيرالشوكاني وأفيد لأن مؤلفه أخذ زبد ما في تفسيرالشوكاني وزاد عليه أشياءكثيرة فكان أجمع وأوسع وأكثر فائدة".وكيف لا؟ وقد انتهج فيه منهجا سلفيا أثريا خاليا عن الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية.

وكان شاعرا ليس مطبوعا. يبلغ عدد أبياته 278 بيتا قالها باللغة العربية واللغة الفارسية واللغة الأردوية. ومعظمها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والموعظة الحسنة والحكمة البالغة. وقليلها في الغزل وغير ذلك. وقرض في مدح النبي صلى الله عليه وسلم قصيدة شهيرة وهي "القصيدة العنبرية في مدح خير البرية".

واختار النواب في أشعاره أسلوبا صعبا أحيانا وسهلا أخرى كما اختار أسلوبا علميا حاملا مبادئ الأخلاق الحسنة والمكارم العليا. ومما قال في المديح النبوي:

كيف الأصول إلى منازل طيبة
فيها لمفتقر حصول رجاء
إني عشقت على إقامة طابة
فمتى أفوز بجنة الدنيا
نفسي الفداء لتربة قدسية
فيها نبي سيد البطحاء
ماذا يقرب في مديحك مادح
عجز الموصف عن بيان ثناء

ولما يتم تدوين أشعاره حتى الآن – حسب علمي – بل هي منتشرة في طيات الكتب.

حقّا نال السيد حظوة لدى الكبار والصغار والأوساط البشرية فمدحوه في مقالاتهم وتقاريظهم ومنحه السلطان عبدالمجيد خان "الوسام المجيدي" كعلامة للعز والوقار وقام بطبع جميع تقاريظ النظم والنثر مع حكم خليفة المسلمين السلطان عبدالمجيد خان[13].

ونظرا لهذه المساعي الجميلة في إحياء السنة وإشاعة الكتب الدينية ونشر العلوم الشرعية والعلوم الأدبية والعلوم الأخرى لقبه العلماء بـ"المجدد"[14] فقالوا "علامة الزمان وترجمان الحديث والقرآن ومحي العلوم العربية وبدر الأقطار الهندية السيد صديق حسن البخاري القنوجي صاحب المصنفات الشهيرة"[15].

وفي نهاية المطاف يمكن لنا القول إن العلامة صديق حسن خان قام بإثراء اللغة العربية وآدابها على أحسن وجه فإنه ولج كل باب من اللغة والاشتقاق والبلاغة والبديع والمراسلة والصرف والنحو والإنشاء والمدح والحكمة والموعظة والغزل في الشعر كما ولج كل باب من التفسير والحديث والفقه والأصول والمنطق والفلسفة والتصوف والسيرة والتاريخ وما إلى ذلك.

الحواشي:

[1] – النواب صديق حسن خان: إبقاء المنن، ص: 59

[2] – النواب صديق حسن خان: مآثر صديقي، ج: 3، ص: 200

[3] - المصدر السابق، ج: 2، ص: 12
[4] - مجلة التبيان، أبريل، 2014م، ص: 14 بقدر من الاختصار
[5] - المصدر السابق، مايو، 2014م، ص: 12
[6] - سيد عرفان الله النظامي: الدليل العربي في الأدب العربي، ص: 73
[7] - د. أشفاق أحمد: نفحة الهند، ص: 38
[8] - أبويحيى خان الشهروي: تراجم علماء حديث، ص: 292
[9] - مجلة صوت الأمة، ذوالحجة، 1435هـ الموافق أكتوبر، 2014م، ص: 40-41
[10] - المصدر السابق، ص: 40 بشيء من التغيير
[11] - المصدر السابق، ص: 42 بشيء من التغيير
[12] - نفس المصدر بشيء من التغيير
[13] - مجلة التبيان، مايو، 2014م، ص: 11 بشيء من التغيير
[14] - المصدر السابق، ص: 5
[15] - محمد الفاروقي ومحمد إسماعيل: العربية وآدابها، ص: 94

المصادر والمراجع:

- أشفاق أحمد، الدكتور: نفحة الهند، طبعة أولى، عام 2006م، مطبع ميرجا باري كاتيهار، الهند.
- أبويحيى خان النوشهروي: تراجم علماء حديث هند.
- صوت الأمة، ذوالحجة، 1435هـ الموافق أكتوبر، 2014م، بنارس، الهند.
- عبدالحي الحسني: نزهة الخواطر.
- عرفان الله النظامي: الدليل العربي في الأدب العربي، دكن تريدرس بك سيلر إيند ببلشر، حيدرآباد.
- محمد اجتباء الندوي: الأمير صديق حسن خان: حياته وآثاره، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، 1420هـ الموافق 1999م
- مجلة التبيان، مارس – مايو، 2014م، نيو دلهي.
- محمد الفاروقي ومحمد إسماعيل: العربية وآدابها، مطبع إرشاد بك دبو، كاليكوت.
- نذير أحمد الرحماني: أهلحديث اور سياست.
- النواب صديق حسن خان: إبقاء المنن بإلقاء المحن.
- النواب صديق حسن خان: مآثر صديقي موسوم به سيرت والا جاهي.